قصة هبة داؤود

بصراحة، أنا لست بخير حقًا ولكني سأخبركم بكل ما حدث لي.

في البداية كنت أقيم في منزلي. المنزل الذي بنيناه أنا وزوجي معًا طوبة، طوبة، ويد بيدي. كنا هناك ولكن الدبابات ظلت تقترب، وكنا نعيش خلف مستشفى الشفاء. اقتربت الدبابات منا أكثر فأكثر، وعشنا ليلة شديدة السواد والرصاص يتطاير فوق رؤوسنا ونحن نيام.

صبرنا حتى الصباح، ثم غادرنا منزلنا لنكون مع بعض أقاربنا. كما تعلمون، كما يقولون "أن نموت معًا .. أرحم". لذلك بقينا هناك مع عائلة زوجي. كنا جميعًا معًا في منزل واحد، لكن لا يوجد مكان آمن. في الواقع، لا يوجد مكان آمن واحد في كل قطاع غزة. وبعد يومين علمت أن صاروخين قد أصابا منزلنا. الحمد لله يمكن تعويض المال لكن المهم أننا كنا بأمان.

في اليوم التالي، حوالي الساعة 11:00 ليلاً، اقاموا جزاما ناريا في منطقة منزل أهل زوجي. كنا جميعًا نرتعد من الخوف وكان الجميع يحضن زوجته وأطفاله. كان والد زوجي يحضن زوجته، وكان زوجي يحضنني أنا وأطفالنا وكنا نجلس معًا ونرتعش عندما سقطت الصواريخ حولنا. بدأ الزجاج والسقف فوقنا يتشققان، وفي النهاية كنا ننتظر توقف الصواريخ. يمكنك القول إنه كان هناك ما لا يقل عن 50 صاروخًا، 50 صاروخًا أطلقوهم علينا وكنا ننتظر دورنا للموت. في الواقع، ظننا أن دورنا قد جاء، وأن كل صاروخ يسقط كان يتجه نحونا مباشرة! لقد انهرت تمامًا وأنا أرى النار أمام عينيّ، وأشاهد الزجاج يسقط وتتصدع الجدران. لمدة نصف ساعة على الأقل كان الموت أمامنا، الموت بمعنى الكلمة.

توقف القصف، ولم يعد بإمكاننا البقاء في الطابق الثاني، فقد بدأت المياه تتسرب من الجدران والسقف، فنزلنا إلى الطابق الأرضي، إلى المساحة الموجودة أسفل الدرج. بقينا تحت الدرج لمدة ساعتين تقريبًا معتقدين أن القصف قد يبدأ مرة أخرى، لكن لم يحدث شيء. اعتقدنا أن القصف توقف، وأن القوات الإسرائيلية أنهت قنابلها، فخرجنا من تحت الدرج.

قام والد زوجي وصلى بينما زوجي جالس يقرأ القرآن. وعندما انتهى قال: "حسنًا، سنستعد للنوم. يجب أن تذهب النساء للنوم في غرف النوم، ونحن الرجال سنبقى في الصالون". كان هذا اليوم الثالث الذي لم نشهد فيه أي نوم ولم نتمكن حتى من إراحة أجسادنا قليلاً. ذهبت إلى غرفة النوم في الساعة الواحدة صباحًا، ووضعت رأسي ونمت مع ابنتي وابني. قلت لزوجي: خليك جنبي، أرجوك نام جنبي. لذلك نام بجانبي.

في الثالثة صباحًا، خرج زوجي ليجلس مع الرجال الآخرين، ودخلت أخته معي إلى الغرفة. لقد استيقظت من النوم بسبب ارتطام هائل هز المنزل بأكمله - لم أكن أتوقع ذلك. تم قصف المنزل ووجدت المكان كله مغبرًا؛ تحول لون الأطفال إلى اللون الأسود بسبب الغبار ولم أستطع التنفس. وكانت أخت زوجي بجانبي وهي تبكي، فقلت لها: يا حبيبتي سنموت شهداء. لماذا تبكين؟ كل ما استطاعت أن تقوله لي هو "أبي! أبي، هبة، أريد أن أموت مع أبي". نظرت إلى باب الغرفة ولكن كل ما وجدته كان ركامًا وأكوامًا بأكوام. عرفت أن منزلنا هو الذي أصابته القنبلة.

صعدت فوق الكومة، إلى الصالون؛ لم تكن هناك ملامح بشرية في أي مكان! في الصالون كانت الكومة فوق الرجال، فوقهم جميعًا. لم يكن هناك أحد. ولم يكن هناك أحد يرفع صوته. لم يكن هناك أحد يعيش. بدأت أبحث عن زوجي وأنادي عليه. ظللت أنده عليه ولكن لم أتمكن من سماع صوته. رأيت والد زوجي، وكان لا يزال واعيًا؛ زوج أخت زوجي استشهد رحمه الله. وكان طبيبًا أيضًا، مثل والد زوجي وزوجي، لكنه استشهد وكان ينزف. كان والد زوجي لا زال على قيد الحياة، فحرك رأسه، تلا شهادته، ابتسم ومات.

ظللت أبحث عن زوجي لكني لم أجده. أنا بصراحة لا أعرف كيف تمكنت من ذلك، ظللت أرفع الطوب الواحدة تلو الأخرى؛ كيف استطعت رفعتهم، لا أعلم. كملت رفع الطوب بحثا عنه وأخيراً رأيت رأسه. وجدت جلد رأسه وقد تقشرت، يعني الطبقات الخارجية من جلده كانت متدلية، ولم أستطع أن أفهم أي شيء، اعتقدت حقًا أنه مات. بدأت أصرخ عليه وأنادي باسمه وأرفع الحجارة عنه بيديّ. وكانت ساقاه عالقتين بين صخرتين ضخمتين من الركام.

وعندما رفعت الصخرة عنه صرخ من الألم، وأدركت أنه لا يزال على قيد الحياة. واصلت رفع المزيد والمزيد من الحجارة عنه، ووجدت جلد رأسه يتساقط وأذنه منفصلة أيضًا؛ لقد كانت معلقة على رأسه بقطعة واحدة. واصلت إخراجه وجاء عمه الذي يعيش بجوارهم لمساعدتي في حمله ووضعناه على قطعة من الخشب.

وفي ذلك الوقت حدثت معجزة. عادة، عندما يتم قصف منزل، تنقطع خدمات الاتصالات بشكل كامل، لكن الخدمة ما زالت موجودة حتى أتمكن من الاتصال بوالدي وهو طبيب، واستخدمت هاتف زوجي أيضًا لأنه طبيب ويعرف الكثيرين غيره. بدأت في الاتصال بالأطباء وإخبارهم عن الوضع كما رأيته وسؤالهم عما يمكنني فعله. بصراحة، كل ما يمكنني فعله هو ضمادة رأسه. كنت أرتدي حجابي، فخلعته وربطته حول رأسه ثم استخدمت الباندانا لتثبيته. وحاولت بكل قوتي أن أنقذ حياته.

كان أطفالي بخير، ذهبت للاطمئنان عليهم في الخارج ثم عدت إلى زوجي وكان كل من حولي أطفالًا، أطفالًا، أطفالًا. بنات إخوتي كانوا تحت الأنقاض، وبدأنا بالحفر لهم لإخراجهم، أما البقية فكانوا شهداء. تسعة شهداء في المنزل. تسعة شهداء، تسعة. منهم ابنة أخي، طفلة عمرها 28 يوماً. ولدت أثناء الحرب وتوفيت أثناء الحرب؛ لقد حصلنا على شهادة وفاتها قبل شهادة ميلادها. وبينما كنا نحفر بين الأنقاض، لم يتوقف القصف. كنت أحفر وأرى النار في كل مكان حولي؛ ما زالوا لا يرحموننا. لقد استمروا في القصف. وبعد فترة، عندما توقفوا، حاولنا الاتصال بالإسعاف والدفاع المدني والصليب الأحمر، ولم يرد أحد. ولم يكن أحد يجيبنا. وأي شخص يمكننا الوصول إليه سيقول فقط: "لا يمكننا الوصول إليكم. لا نستطيع الوصول إليك." هل يمكنك أن تتخيل؟ كان القصف عند الساعة 3:30 صباحًا وأصيب زوجي، وكان بحاجة للذهاب إلى المستشفى. وضعت يدي على قلبه وحاولت شفاءه، وحاولت أن أفعل كل ما بوسعي من أجله لأنه لم يستطع أحد أن يأتي من أجلنا، لا أحد. وأي سيارة إسعاف تحاول القدوم إلينا، كانوا [الإسرائيليون] يطلقون النار عليهم. ولم يتمكن أحد من الدخول إلى منطقة شارع أبو حصيرة. جلست بجوار زوجي حتى الساعة التاسعة أو العاشرة صباحًا، وعندما قصفوا المنزل عرضونا في الشارع. أعني أنني كنت فوق أنقاض منزلنا مع زوجي، لكننا كنا ننظر إلى الشارع. رأيت منزل جاري، فبدأت أتحدث معهم وسألتهم عما كانوا يخططون للقيام به وإلى أين سيذهبون حتى نتمكن من القيام بنفس الشيء مثلهم.

أعطاني رقم هاتفه، وفي الواقع، رأيت صاروخين يسقطان وينهار منزل جارنا أثناء مغادرتهم. وعلى الرغم من أنهم كانوا يرفعون الأعلام البيضاء، وعلى الرغم من أنهم كانوا يغادرون للإقامة مع أقاربهم، إلا أن الصواريخ سقطت عليهم واستشهدوا. لم أستطع تحمل ذلك. لم أكن أعرف إذا كان ينبغي لنا أن نذهب أو إذا كان علينا أن نبقى أو ماذا يجب أن نفعل. لقد حاولنا التواصل مع العالم، ومع أي شخص يمكنه تقديم نداءات نيابة عنا، لكننا لم نتمكن من فعل أي شيء. وأخبرنا الصليب الأحمر أن سيارات الإسعاف لا تستطيع الحضور؛ إذا أرسلوا سيارات الإسعاف فسوف يقصفهم الإسرائيليون. لم يتمكنوا من فعل أي شيء. أقول لك، الأشخاص الوحيدون الذين بقوا معي على قيد الحياة هم زوجي إبراهيم، وعمه، وجميعنا نساء، ووالدة إبراهيم الكبيرة في السن، وفتيات أخريات في عمري. لم نتمكن من حمله لنقله إلى مكان آمن في المنزل لأن سقف الطابق العلوي انهار على سقف الطابق السفلي.

لقد جلسنا معه للتو وظللت أتأكد من أنه يستطيع الرد علي؛ كنت أوقظه بين الحين والآخر وأقول له: "ابق على قيد الحياة، ابق على قيد الحياة"، وكان يتمتم بشيء حتى أعرف أنه لا يزال على قيد الحياة.

في الساعة 4:30 بعد الظهر، كانت الضربات لا تزال مستمرة وسقط صاروخ على السقف فوقنا؛ كان على وشك الانهيار علينا مرة أخرى! ذهبت لكل من كان معنا في المنزل وقلت أننا بحاجة إلى نقل زوجي، فحملناه بحذر شديد، خوفًا من أن يحدث شيء في عموده الفقري لأنه كان تحت الأنقاض. لقد حملناه، لا يمكنك حتى أن تفهمي مدى الحذر، وكان يتخبط، المسكين، لكن كان علي فقط أن أنقذه من السقف الذي يمكن أن يسقط علينا في أي لحظة. ذهبنا وجلسنا في المنزل المجاور لمنزلنا والذي تعرض للقصف أيضًا ولكنه كان في حالة أفضل. جلسنا في ليلة مظلمة جدًا، واحدة من أحلك الليالي في حياتي، بالمعنى الحرفي للكلمة. لقد أغلقنا جميع الأضواء وجميع هواتفنا حتى لا يرى جنود الاحتلال أننا كنا هناك وأننا مازلنا على قيد الحياة. فقط حتى نتمكن من الوصول إلى الصباح لأنني أخبرت عائلتي أنه يمكننا تقديم نداء للمساعدة؛ تحدثنا مع كل من نعرفه عن تقديم مناشدة وبارك الله في هذا المعلم الجعفري الذي قدم مناشدة عامة حصلت على 18 مليون مشاهدة وبعد مناشدته حظيت ببعض الاهتمام - بارك الله في قناة الجزيرة أيضًا - لأني والد زوجي كان طبيبا معروفا واستشهد، دكتور حمامة، فلفتت [الجزيرة] بعض الاهتمام إلى عائلة النخّال التي كان لديها العديد من الجرحى من النساء والأطفال.

في الساعة 9:00 صباحًا، اتصل بنا جيش الدفاع الإسرائيلي وأخبرني بضرورة مغادرة المنزل فورًا. وفي شارعنا كان هناك 25 عائلة. 25 عائلة كانت محاصرة مثلنا وأصيبت، لكننا كنا المنزل الوحيد الذي اتصلوا به وقالوا لنا أننا بحاجة إلى المغادرة فورًا. قالوا: "اترك المنزل فوراً وإلا سنقصفكم. سوف نقوم بقصف المنزل."

فقلت للجندي: حسنًا، أنا أيضًا أريد المغادرة ولكن زوجي مصاب، وأحتاج إلى نقالة للذهاب إلى المستشفى. لا أستطيع أن أحمله. "لا أستطيع أن أحمله في الشارع، كل شيء ركام وحجارة، كيف أستطيع أن أحمل زوجي؟"

جاوبني: "دبري حالك، ما راح اجبلك إيشي."

أجبت: "حسنًا، حسنًا، لكن أخبر الصليب الأحمر أنك طلبت منا الرحيل..."

قال: "خلي الصليب الأحمر ينفعك، راح أقصف حالا" وكرر: "راح أقصف، اطلعي فورا."

لذلك بدأنا نركض مثل المجانين، كما تعلمون، مجرد مجانين. أخبرت زوجي أننا بحاجة إلى المغادرة فقال: "اذهبوا جميعًا واتركوني هنا. كفى، لا تعرضوا أنفسكم للخطر من أجلي. أنقذوا حياتكم" فقلت له: "والله لن أتركك، أريد أن أموت بجانبك. لن أغادر بدونك." وقلنا جميعا أننا لن نتركه بل سنبقى بجانبه. لن نغادر قبل أن يغادر معنا.

حملناه على كرسي بلاستيكي. لا أعرف كيف! لكننا وجدنا كرسي مكتب بين الركام لا يزال من الممكن دفعه، فوضعناه على ذلك الكرسي ودفعناه. دفعناه بين شارعنا وشارع مستشفى الشفاء، بين الركام، ووصلنا إلى منتصف الطريق تقريبًا، ولا أعرف كيف، ولكن حدثت معجزة ثانية. وفجأة لقيت واحد يحمل راية بيضاء، وشاب معه نقالة وهو يركض نحونا. من أرسله، لا أعرف. من أين أتى، لا أعرف. لكنني أعلم أنه جاء من أجلنا.

وضعنا إبراهيم على النقالة وركضنا إلى مستشفى الشفاء والحمد لله، الحمد لله، تمكنوا من عمل غرز له في رأسه وإعادة ربط أذنه وخياطتها. وتبينوا أنه أصيب بثلاثة كسور في قفصه الصدري بعد الفحوصات، وبالتالي كان لديه أكسجين بين ثنايا رئتيه. وفي النهاية، أعطوه أنبوبًا صدريًا للمساعدة في امتصاص الأكسجين.

رأيت الموت، رأيت الموت. زوجي يعاني من صدمة نفسية حادة. صدمة نفسية شديدة حقا. عندما يستيقظ، لا يتذكرني، لا يتذكر أطفالنا، لا يتذكر أحداً. استشهد والده. استشهد أخوه وقُطع نصفين. صهره الذي كان أقرب أصدقاء حياته والذي درس معه الطب في جامعة اليمن، استشهد كل من أحبه. لم يستطع تحمل ما حدث فدخل في صدمة نفسية حادة. كان يحاول الهروب من الواقع. لم يتذكرني، ولم يتذكر أطفالنا. حينها انهرت، أصبت بانهيار عصبي كامل. الله وحده يعلم كيف وقفت بجانبه في تلك المرحلة.

بعد يومين – أمضينا حوالي يومين في المستشفى، يومين أو ثلاثة، لا أتذكر بالضبط – حينها أتى أمر إخلاء مستشفى الشفاء فورًا. بدأت بالبكاء؛ ماذا أفعل مع زوجي عندما يأمرني الاحتلال بمغادرة مستشفى الشفاء إلى صلاح الدين في الجنوب؟ على بعد اثني عشر كيلومترًا، كان علينا أن نذهب سيرًا على الأقدام، وأرادوا منا أن نذهب على الفور. بدأت بالبكاء، ماذا أفعل بزوجي؟ لكن شيئًا ما أخبرني أنني سأتمكن من القيام بذلك، يمكنني الذهاب. حصلنا على كرسي متحرك لزوجي بعد حوالي ساعتين من البحث عنه في المستشفى حتى نتمكن من دفعه، والحمد لله وجدنا واحدًا.

لكننا انتقلنا من الموت إلى الموت. حقا كنا نذهب من موت إلى موت. ومن مستشفى الشفاء ذهبنا إلى الفناء، باتجاه ما كانوا يسمونه [الإسرائيليون] بالممر الآمن. ولكنهم كذبوا، إنهم كاذبون.

وصلنا إلى حاجزهم في طريق صلاح الدين. كانت معنا ابنتي البالغة من العمر أربع سنوات، المسكينة، لم يكن لدي أي طعام. كنت أحمل ابني الذي يبلغ من العمر خمسة أشهر، وأحمل الحقيبة على ظهري وأدفع زوجي. كانت كتفي منتفخة جدًا. عندما وصلنا إلى الحاجز الإسرائيلي، تركونا هناك ننتظر من الساعة 11 صباحًا حتى الساعة 4 بعد الظهر، ولم يسمحوا لأي شخص بالمرور. هذه هي الطريقة التي يعاملوننا بها. كان ممنوعا الجلوس، يجبرونك على الوقوف وعلى رفع يديك. لقد اعتقلوا 10 شبان بشكل عشوائي، وكانوا يقولون فقط "أنت، تعال!" "انت تعال!" وفي النهاية، في الساعة 4 بعد الظهر، لم يسمحوا لأي شخص بالدخول، بل قالوا للجميع: "اذهبوا". أين نذهب؟ كيف يجب أن نذهب؟ قالوا: لا نعرف. اكتشفوا ذلك بأنفسكم. هيا اذهبوا!" ومن يرفض المغادرة، كانوا يطلقون عليه غبار الدبابات، ويطلقون الرصاص خلف الناس أثناء الفرار.

نزّحنا وعدنا إلى الشمال من جديد حيث كانوا يقصفون طوال الوقت. حلّ الليل وكنا نحاول العثور على مكان نذهب إليه ونحاول الركض بينما يقصفون من حولنا. كانت هناك مدرسة في شارع الزيتون، وهي معروفة بأنها منطقة خطيرة. كان الناس يحتمون بالمدرسة ورأونا بهذه الحالة وقالوا "تعالوا هنا!" لقد أخذونا إلى المدرسة وكانت تلك واحدة من أسوأ الليالي في حياتي. في المدرسة، لم يكن لدينا أي شيء، وكان الجو باردًا جدًا. جلسنا في فصل دراسي بلا حصر ولا وسائد ولا بطانيات ولا شيء. جلسنا في البرد القارس على البلاط، وجلسنا على البلاط مع أطفالنا طوال الليل، وطوال الوقت كانت هناك حلقة من النار حول المدرسة وكانت الشظايا تتطاير نحونا. كنا نعيش حالة من الرعب طوال الليل، وفي الساعة السابعة صباحًا حدث تبادل لإطلاق النار. إطلاق نار على باب المدرسة. نظرنا من النافذة فرأينا الدبابات متوقفة عند باب المدرسة، فبدأنا بالركض؛ كان الجميع يركضون وكانوا يقصفون خلفنا. كنا نركض وكانوا يقصفون خلفنا. لذلك عدنا إلى منطقة غزة مرة أخرى وكان هذا أحد أسوأ أيام حياتي على الإطلاق.

وصلنا الآن إلى منطقة بها بعض أقارب زوج أختي. كنا بحاجة فقط إلى العثور على الجدران الأربعة التي من شأنها أن تؤوينا مؤقتًا. لقد دُمر منزلي، ودمر منزل والد زوجي.

بعد الهدنة، عادت عائلتي إلى منزلهم ووجدته غير معروف. قذائف الفوسفور في كل مكان، انهارت بالكامل واختفى كل شيء. لم تكن مناسبة للعيش. لقد دمرت منازل إخوتي جميعًا واحدًا تلو الآخر.

لقد انهار عليهم منزل أختي، وخرجت هي وزوجها وأولادهما من تحت الأنقاض، وكان الله في عونهم. وهم أيضاً نازحون. احنا نازحين... نازحين. لقد رأيت الموت أمام عيني. لقد رأيت الموت. لقد رأيت الموت بأم عيني. لا أستطيع الخروج من هذه الحالة التي أنا فيها. أحاول تقوية نفسي؛ أحاول أن أبدو وكأنني بخير أمامهم [عائلتي] ولكن من الداخل، أنا محطم تمامًا. أنا محطمة داخليًا تمامًا. لا أعلم كيف أمكنني أن أتحمل كل هذا؟ كيف عبرت الركام والمدرسة وكل شيء بعد المدرسة؟ في المنزل الذي أعيش فيه، كان هناك قصف على مسافة بعيدة. رأيت الانفجار لكنه لم يكن كذلك... لم أكن خائفًا كما كنت عندما حدث بالقرب مني. لكني أتذكر كل ما مررت به. أتذكر حلقة النار، أتذكر سقوط الجدران، أتذكر كل ما حدث وكأنه يحدث مرة أخرى. بدأت في معانقة والدتي وقلت لها: "أمي، لا أستطيع تحمل رؤية كل ما رأيته يحدث مرة أخرى. لا أريد رؤيته مرة أخرى. يكفي، لا أستطيع!" الآن نحن نقيم في هذا المنزل مؤقتا. عندما تنتهي الحرب أو بعدها، لا نعرف أين سنذهب أو أين سنعيش.

بعد الهدنة خرجت إلى الشارع. الشوارع مرعبة، إنها صحراء، صحراء. صحراء حرفيا. ذهبت إلى منزلي لأخذ أي شيء، أي قطعة من الركام أو أي شيء. وبكيت للتو من أجل منزلي. حاولت العثور على أي شيء، أي شيء أكثر من ذلك. المنزل أصبح غير صالح للسكن على الإطلاق منذ سقوط الصواريخ. الحمد لله [أننا لم نكن هناك].

الحمد لله نحن بخير الآن. زوجي يتحسن شيئا فشيئا. صحته بدأت تتحسن والحمد لله، لكن الغرز تحتاج إلى وقت قبل أن يتم إخراجها، وعضلاته - لأنه كان مدفوناً تحت الكثير من الركام - لا تزال عضلاته بحاجة إلى وقت لتتحسن. صدمته النفسية تتحسن والحمد لله ولكنها تحتاج إلى صبر. قالوا لي أنه يحتاج إلى شهرين على الأقل، وإن شاء الله سيكون أفضل من ذي قبل، فقط مع مرور الوقت. الصدمة النفسية الحادة التي تعرض لها تحتاج إلى وقت.

والآن أخبرتك بكل ما تحملته حتى تتمكني من كشف هؤلاء الكلاب [الإسرائيليين]. يمكنك نشر أصواتنا وإيصال كل ما مررنا به. الحمد لله، رأيت كل شيء. لقد فقدنا شهداء، وخسرنا بيتنا، وخسرنا أموالنا، وخسرنا كل شيء إلا الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، أنا بخير وزوجي بخير، وأولادي بخير. رحم الله روح والد زوجي، وأخ زوجي، وزوج أختي. رحم الله روح خالد زوج أخت زوجي، ورحم الله أرواح الأطفال الذين فقدناهم. والحمد لله أنا وأولادي بخير. الحمد لله لزوجي. إن شاء الله سوف يتعافى. إن شاء الله ربي يجعلنا أفضل مما كنا عليه من قبل.